الشيخ
د. طارق عبد الحليم
الأخلاق
في القرآن الكريم
الوثيقة الكاملة

الأخلاق في القرآن الكريم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وبعدد

مقدمة:

فقد كانت أمنيتي منذ أن تعرفت على كتاب الله تعالى وتسرب من حكمته إلى عقلي ومن عَبَقه إلى صدرى ومن أسلوبه إلى تصرفي وقلمي، أن أدون شيئاً في الموضع الذي وضعته عنوانا لهذا المبحث "الأخلاق في القرن الكريم".

ذلك أنّ القرآن حين تنزّل على رسول الله المصطفى ﷺ، كانت العرب على خلق تشابكت فيه جاهلية قديمة عقيمة مظلمة، وأعراف مستقرة بالية، وخُلُق فيه مما فُطروا عليه من مصدرين، طبيعتهم الصحراوية البدوية، وما انحدر لهم من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من ناحية أخرى. فكان فيهم الكثير من محاسن الخُلُق والشهامة وإكرام الضيف وعدم الرضى بالضيم، وفيهم من مساوئ الخُلُق كثير، كوأد البنات وفشو الزنا، والخمر والربا.

وكانت تلك الخلطة الأخلاقية، بعُجرها وبُجرها، من أسباب اختيار ربّ العالمين لتلك الأمة، الضائعة وقتها، الرائعة بعدها، لرسالته الخاتمة، واختيار رسول الله المصطفى ﷺ، للرسالة الخاتمة فيها.

وقد ورد عن السلف الصالح أنه "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". وهو قول من أصدق ما قيل عن أمة محمدٍ ﷺ. ذلك أنّ طبيعة هذه الأمة، التي عاش سلفها، ولا يزال يعيش خلفها، في جو صحراوي جافٍ تُشكلّ أرضه الواسعة كلها، وعليها بعض منافذ بحرية تحيط بها، ثم نهرين أساسيين، هما النيل والفرات، جعلتا لهذه الأمة خصائص معينة من ناحية التكوين النفسي والتركيبة الإجتماعية. وهذان الأمران، أعنى التكوين النفسي والتركيبة الإجتماعية، هما المكونان للأعراف والأخلاق، من حيث أنّ الأعراف هي الخلق الإجتماعي الذي يتواطئ عليه مجموع الناس في بيئة محددة، ليكون خلقاً مقبولاً لدي الجميع، يثير الخروج عليه الانتباه اشمئزازا ورفضاً.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أثر البيئة في التكوين البدني والخلقيّ، وما يتعارف عليه الناس، علوّاً وسفولاً. قال تعالى في حق بني إسرائيل "وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ " البقرة 261. فقد تعودت بني إسرائيل على أكل الدنيّ من الطعام، فلم يصبروا على الغني منه، ولذا تشكلت إخلاقهم من هذا

الدنيّن فكانت سبباً في تصرفاتهم التي ضربت عليهم الذلة والمسكنة. وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أثر البيئة على التكوين البدنيّ والخلقي لبني آدم في كتابه العظيم "مقدمة ابن خلدون"[1].

فالخلق الفرديّ هو وليد التفاعل بين الشخصية الفردية وبين العادات والأعراف الإجتماعية التي تكوّن الخلق الاجتماعيّ.

وقد جاء القرآن الكريم بأفضل ما يكون عليه الخلق الفرديّ، وبأفضل ما يجب ان يكون عليه العرف الإجتماعيّ، من حيث علم الله سبحانه تلك العلاقة التي ذكرنا، وجمع بينهما في افضل تناسق يرفع التعارض ويضع سنة التدافع في موضعها. بينما نرى الحضارات الوضعية تفتخر بأنها وضعت التصرف الفردي مطلق عن التقييد والتحديد، بينما قيدت المجتمع بقيود لا يتعداها، بصرامة القوانين الوضعية.

ماهية الأخلاق

الخلق هو الطبع الملازم للإنسان في كل حالاته في باب من أبواب التصرف. وقد جعله الله سبحانه من فطرة الإنسان السويّ، في بعض جوانبه، وإن جنحت كفة الميزان في الاعتدال تارة نحو المبالغة وتارة نحو التقصير، بشكل متقلبٍ أو دائم، حسب طبيعة الفرد. ويعرّفه الفلاسفة بتعريفات كثيرة، من أقربها للصواب ما قاله جان جاك روسو، أنها تلك الملكة التي تجعلنا نميّز الخير من الشر، وما يعود علينا من نفع أفراداً وجماعات.

أما الأخلاق الإجتماعية، أو الأعراف، فهي وليدة تمازج الأفراد، وتولّد القناعات، قرونا بعد قرون، بعد أن أنشأتها الفطرة، ثم أيدها العقل، وارتكزت في الشعور، ونزلت بمعاييرها الصحيحة في إعتدالها الرسالات. ولاشك أن هذا الخُلق الاجتماعي هو مركب من خُلق إفراده، التي يجتمعون عليها، لتصبح لمعنى "الثقافة"، التي يمكن تعريفها بأنها "التصرفات المتماثلة التي يقوم بها أفراد المجتمع دون شعورٍ منهم بها" [2].

وقد وضع القرآن الكريم قواعد الأخلاق وبيّنها ووازن بين أطرافها، مصالحا ومفاسدا، فمال بها إلى الرحمة في موضعها، وإلى الشدة في موضعها، وإلى التوسط الكريم في غالبها، فكان مرشدا وهاديا للفطرة السويّة.

والقرآن ملئ بالتوجيهات الخُلُقية والتربوية الثمينة، كيف لا، وقد قال تعالى "أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ". فهو سبحانه يعلم ما يُصلحنا، وما يُفسدنا، أفراداً وجماعات.

وتلك التوجيهات تأتي في إطارين:

أولهما النص المباشر الصريح في التوجيه الخلقيّ مثل "وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا" الإسراء 37

[1] "مقدمة ابن خلدون" بتقديم د على عبد الواحد وافي، ج1 ص 393، طبعة نهضة مصر.

[2] Without knowing it, they behave alike", my PhD thesis 1989,

والثاني التوجيه غير المباشر، بدلالة الموقف أو المشهد بشكلٍ عام، كما في موقف موسى عليه السلام من فرعون "وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورًا ﴿١٠٢﴾" الإسراء، من حيث أسلوب الرد على المُخالف، وهو منتشر في القرآن في مواطن عديدة.

فحكمة القرآن وتوجيهه للبشر، في التعامل الخلقي الرفيع، هو الأحرى بالنظر والاستقصاء والتبني التربوي، إن أردنا أن نرفع عنا ذل المهانة والخزي وسوء الأدب الذي أصبح آفة الآفات في شعوبنا عامة، فالذين يحبون إشاعة الفاحشة يعلمون تماما أن مردودها السقوط الخلقيّ ثم الانهيار الاجتماعيّ.

(1)

باقة سورة الإسراء

السنن الكونية والكنوز الأخلاقية في سورة الإسراء

وسننظر أولا في سورةٍ تحمل كنوزا من التوجيهات الإخلاقية، تترى، ويلحق بعضها بعضاً، في تتالٍ يأخذ بالأنفاس ويُعجز اللسان، بضرب من أعلى ضروب البيان، وهي سورة الإسراء. ونلاحظ أن آياتها جاءت من الضرب الأول نصاً في معناها.

قال جلّ وعلا في سورة الإسراء:

"مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾"الإسراء

وقد بدأ سبحانه وتعالى بتقرير قواعد كلية وثوابت شرعية وسننا كونية، يبيّن بها صلة المرء بعمله، وعمل غيره وبنعمته سبحانه على البشر بتوجيههم بالكتب والرسل مبشرين ومنذرين، قبل أن يوجههم إلى ما هو من حسن الأفعال وكريم الأخلاق.

مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ

بداية مزلزلة فيها هداية وتحذير، وفيها أساس من أهم الأسس العقدية والخُلُقية في المنظومة الإسلامية. ذلك أن هدايتك أو ضلالك إما ثمارها لك وحدك حصراً[3]، لا ينتفع بها أب أو ابن أو قريب، إلا من اتخذ من هدايتك مثالاً يحتذيه، ليس إلا. أما الهداية بذاتها، فهي لا تورث ولا تنقل ملكيتها. وهي تتناسق مع قوله تعالى قبلها بأيات "إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَآۚ". وفيها دلالة عظيمة على أن العبد يختار لنفسه أما أن يضل أو أن يشقى، وهو مقتضي المشيئة الشرعية، ومبرر إنزال الرسل والكتب. وقد قال تعالى "وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ" النجم 39، وهو في نفس المعنى.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ

وهذه، مرة أخرى، من كبريات العقيدة، التي يوردها جلّ وعلا، ليرسُخ في نفس المسلم أنّ عمله الذي سيأتي بعدُ في الآيات اللاحقة، إنما هو له لا لغيره، وأنه لن يحمل تبعات أحد، ولن يحمل أحدٌ تبعاته.

فِعْلُك الباطل ومعصيتك ووزرك، لن يرفع تبعاته عنك، أبا كان أو أهلا أو عشيرة. لذلك ضل هؤلاء الذين قالوا " "وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ" البقرة 58، كذبوا عليهم فأضلوهم.

وسنة "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، تدحض عبث النصارى القائلين بتضحية المسيح عيسى لأجل نجاة البشرية و لمحو ما يسمونها "الخطيئة الأولى". فلا خطيئة آدم عليه السلام، تضر الصالح ولا الطالح من أبنائه، ولا المسيح عليه السلام بقادر أن يمحو خطيئة بشر من البشر.

كلّ الناس سيحملون أوزارهم يوم القيامة، ومن أوزار من تسببوا في إضلالهم، إذ ضلال أولئك هو من ضلالهم في المقام الأول، ومآلات الأفعال معتبرة كجزء منها، يعتبرها المجتهد في تقرير مشروعية الفعل أو عدم مشروعيته[4]. وقد قرر الله سبحانه ذلك في قوله جلّ وعلا "إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾ يس. وَءَاثَٰرَهُمۡ، هي ما ترتب على سوء فعلهم من ضلال وإضلال.

وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾

نعم، رحمة الله سبحانه بعباده، ألا يعذبهم حتى تصلهم الرسالة التي يكفر منكرها، رغم أن الله منّ على بني آدم بالعقل القادر على النظر المستقل، والفطرة السليمة التي يولد عليها كل مولود، حتى يحرفه أبواه عن الحق. وقد صدق الله وعده، فأرسل الرسل للناس كافة مبشرين ومنذرين "وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ" فاطر 24، "وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ " النحل 36. وكلها صيغ عموم مؤكدة حصرية، لا تحتمل تخصيصاً، فالآية أعلاه هي آية إخبارية، وليست إنشائية، والفرق كبير.

[3] وإنما" تفيد الحصر عند جمهور العلماء منطوقاً.
[4] الموافقات ج4 ص

وهذه الكلية الشرعية، قد دار حولها نقاش واسع متشعبٌ في العقيدة والأصول والفقه[5]، لا أظن محله في حديثنا هذا، لكن الغرض أن يرى المسلم سعة عفو الله ورحمته وإرادته الخير بالناس، فهو سبحانه لم يخلقنا عبثا "لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ "الأنبياء، ولم يتركنا سدى "أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى" القيامة 36. فعلة الخلق منصوصص عليها "وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ" الذاريات 56. والخالق جلّ وعلا، تتحتم له كلّ صفات الكمال، ولو كان فيه نقصٌ – حاشاه، ما كان هو الرب الحق والإله المستحق. ومن كمال صفاته سبحانه الحكمة والرحمة والعدل. فالحكمة تؤدى إلى سبب إيجاد الخلق، والرحمة تؤدي إلى العناية بهم ورعايتهم، ولا يتم هذا إلا بمفهوم النبوة، ومن ثم إرسال الرسل وإنزال الكتب، ليهدي إلى المحجة ويقيم الحجة، فلا يدخل النار إلا من حق عليه القول بظلمه لنفسه ورده للشرائع.

وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾

سبحان الله العظيم. هذه سنة الله في الأولين والآخرين. أن يقترن الترف بالفسق، ومن ثمّ بالدمار، فالفسق لا يأتي إلا به، انظر حولك، وطف في طيات التاريخ، تجد الترف سببٌ مباشرٌ في سقوط الأمم والحضارات. حدث ذلك لأمة اليونان، ومن بعدها أمة الرومان والفرس على يد المسلمين، ثم على أمة المسلمين حين تخلوا عن تراثهم الإلهيّ لصالح علمانية قميئة وملذات رذيلة، فأتاها الدمار من كلّ جانب.

والمترفين، عادة هم الحكام وبطانتهم، وقد جاءت رواية بتشديد الميم في "أمّرنا" أي جعلناهم أمراء وحكاماً، والواقع خير شاهد وأدلّ دليل، على اضطراد هذه السّنة المحكمة، بلا مجاملة ولا محاباة.

وكلمة "أَرَدۡنَآ" تشير إلى مشيئة الله الكونية التي لا يخرج عن علمها شئ، ولا يجرى من دونها أمر فليس فيها لإجبار نصيب، بل هو العلم والهيمنة. كذلك في قوله تعالى "أَمَرۡنَا"، فالأمر هنا، يعني الإذن بأن تأخذ السنن مجراها دون تدخل إلهي. وقد ذكر عدد من المفسرين أن الأمر هنا هو الأمر الشرعيّ بوجوب الطاعة، فلما فسقوا جرت عليهم السنة فدمرهم الله تدميرا. ولا طارى خلافا في النتيجة، وإن كان الخلاف هنا هو من قبيل أن الأمر هنا كونيّ أو شرعي. والأليق فيما أرى أنه كونيّ بمعنى الإذن[6].

وقوله سبحانه "فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ"، لا يعني ظلماً وتعنتا، لكن يعني جريان السُّنة التي سبقت في كتاب الله ومشيئته الكونية. وانظر في قوله سبحانه "تَدۡمِيرٗا" ، فقد أتى بالمصدر ليعكس الدمار الشامل الهائل، الذي لا تقوم لأمة قيامة بعده، ودونك عاد وثمود وأهل مدين والمؤتفكة وقوم لوط وأصحاب الأيكة، قليل من كثير.، فيا له من نذير، ويا لها من آية هادية وحكمة جامعة.

وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿١٧﴾

ثم يختتم الله سبحانه تلك الباقة النادرة من الحكم السَنِيّة والسنن الكونية، بلفت النظر إلى ما كان من جريانها، دون توقف، على مرّ الزمان واتساع المكان. فكم هي تلك الأمم والحضارات التي عاشت على مدى قرون

[5] فهو يتعلق بموضوع الجهل في عوارض الأهلية أصوليا، وضوابط التكفير عقدياً، وأحكام المرتد فقهياً
[6] انظر الطبري والقرطبي في تفسير آية الإسراء

متتالية بعد نوح عليه السلام، وحتى زمن التنزيل القرآني، دالة على ما جاء من نذر قبلها في الآيات السابقات المحكمات. والقرون هنا قد تكون دالة على الأمم ذاتها، كما في الحديث الصحيح "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" البخاري وفي رواية خير الناس. فالقرن هو الحقبة الزمنية، أو من عاش فيها، سيّان.

ثم ختمها بتقرير حكيم عالم خبير بصير، أن الله سبحانه قد خبر تلك الذنوب وبصُر بها، وعرفها ودوّنها في لوحه المحفوظ. وهذا يكفي "وَكَفَىٰ" ليكون رادعا لبني آدم، أن كلّ ذنب يقترفونه محسوب ومرصود عليهم، فلا مجال لنفي أو إعذار، والله المستعان.

التوجيهات الأخلاقية

لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾

بدأ الله سبحانه سلسة الهداية الخُلقية، بأعلى مراتبها وأسمى معاني تعلقها، التوحيد وعدم الشرك بالله، وهل هناك رتبة أعلى من ذلك تجعل الإنسان يعلو فوق كلّ الكائنات، حتى الملائكة؟!

من جَعل مع الله إلهاً آخر، يعنى أنه قد اجتمعت فيه كافة المفاسد الخلقية، جهلاً واستكباراً، وجحوداً واستعلاءً، فلم يذكر الله تلك المساوئ في المشرك ذاته، بل ذكر بعض نتائجها عليه "مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا" مذموماً في الدنيا لما به من أسوأ الصفات، أعلاها الكفر، ثم يتبعها كما يتبعه من انحطاط في كل ناحية من نواحي الإنسانية. وإن ظهر للعيان بعض فضل فيه، فهو من بقايا الفطرة، التي وهبه الله له، فخانها، فصارت لا أثر لها.

ومخذولاً، في الآخرة، إذ من ينصر من خذل الله؟ يوم لا ناصر إلا هو، ولا منجاة إلا به واليه؟ يوم يتضرع لله أن يعيده كرة أخرى فيخذله في طلبه. يوم يتضرع لمالك أن يسأل ربه أن يقضي عليه، فيخذله. يوم يعض على يديه ويود لو كان تراباً، فينخذل، ويذوق العذاب، فأي خذلان أكثر من هذا الخذلان؟

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـًٔا

كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾"الإسراء

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ

إذن هذا تقرير لما جاء في الآية السابقة، بالأمر بعدم الشرك بالله، وبعاقبة ذلك على من جناه. ثم عقّب هنا بجملة خبرية، هي من قضاء الله الشرعيّ، أنه سبحانه قد قضى في كتابه ألا تكون العبادة إلا له، وهي النتيجة الحتمية بالأمر الأول، أمر الله ألا تُشرك به، فقضاؤه هو أن تعبده وحده، تكملة لما كان من الأمر. وهو ربط بين الأمر الشرعي والقضاء الشرعيّ، وكلاهما لا دخل له بأمره الكوني أو بقضائه الكونيّ. فنحن نرى أن الكثير، بل الأكثر يشركون بالله، ولا يعبدونه، خلافاً لأمره، فكيف يخالفون عن قضائه؟ فالجواب أنهم يخالفون أمره وقضاءه الشرعيين، اللذين أتت بهما الرسل ونزلت فيهما الكتب، وهو مقتضى الخيار البشريّ الذي تركه الله سبحانه للناس، ليكون الاختبار حقيقياً، ويرفع عنهم كلّ حجة "رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا" النساء 165. وهو يختلف عن أمره وقضائه الكونيّ، الذي بموجبه، لا يتم أمر في السموات ولا في الأرض إلا به وعلى مقتضاه، بلا تخلّف. والذي بحسبه صار المؤمن مؤمنا والكافر كافراً، من حيث علِم سبحانه من سيؤمن ومن سيكفر، بعلمه المحيط بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون، وما لم يكن كيف سيكون لو كان. وهو ما دّون في اللوح المحفوظ، واستحال أن يخالف شئ أو أحد ما جاء فيه، وإلا كان علم الله ناقصاً، كما أنّ ما كان وما سيكون وما هو كائنٌ مقتضى حكمته اللانهائية. فالعلم والحكمة والمشيئة يقررون القدر المحتوم، ويقرون القضاء المرسوم.

وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾

ثم جاء ثاني التوجيهات الخُلقية من الله سبحانه في هذه الكوكبة السُّنِيّة تشريفا لمن جعله الله سببا مباشراً في وجود كلّ إنسان على ظهر الأرض، الوالدين. قرن الله سبحانه بين عبادة الله الذي أحسن للنوع البشريّ بتوجيهه لعبادته سبحانه وعدم الشرك به، بالإحسان لوالديه، اللذين قاما على تربيته وتنشئته وتغذيته وتوفير الكساء والغطاء والوقاية من الحرّ والبرد، والسهر عليه بعينٍ لا تكلّ ولا تمل، كل لحظة من لحظات حياته،

حتى بلغَ أشدّه واستوى. فعل الوالدين جزء من أجزاء فيض الإحسان من الله سبحانه على الناس، منْ كَفَره وعقّهما، فقد كفر بنعمة من أكبر نعم الله عليه.

لكن الزمان يمرْ، والحال ينقلب، ويصبح الراعي طالباً للرعاية، ويبلغ الوالدان الكبر، فيهرمان ويشيخان "وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِۚ أَفَلَا يَعْقِلُونَ" يس 68. هو من قضاء الله الكوني، أن يتدرج المرء في مسيرة الحياة، يستبدل قوة بضعف، ثم ضعفا وشيبة بقوة "ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةًۚ " الروم 154. ماذا أمر الله سبحانه المسلم، أن يفعل تجاه الوالدين، في هذه الفترة الحرجة، وهي بلوغ الكبر والعجز؟ أمره بخطاب وجيز بسيط، وهو ألا يقول لهما "أفٍ" ! والله سبحانه يعلم حقيقة أن الكبار لا يحتملون كثيرا، وليس لديهم الصبر على حاجتهم كما كانوا في زمن القوة، فتجدهم يملّون ويجادلون ويقولون ويعيدون ويزيدون، هنا تأتي "الأف". هنا يظهر الصبر على ما هم فيه، كما صبروا عليك وأنت رضيع لا تصبر على جوع. هنا يأتي موعد ردّ الجميل. وبطبيعة الحال، أن من نهى عن أن يقال لهما كلمة من حرفين "أفّ"، فقد نهى، بطريق الأولى، عن أن يقال لهما أيّ شئ أكبر، بُله أن يُفعل بهما أيّ إهمال أو تجنبٍ أو إعراض أو نَهْرٍ. بل الواجب في حقهما، إن تصرفا هكذا في كبرهما، وهما تحت رعايتك، أن تتحدث اليهم بكل رحمة وتشعرهما بكل كرامة، لا أنك تمنّ عليهما بعونك ورعايتك، ومن هنا قال تعالى "وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا" ... وقد تكرر هذا المعنى في سورة البقرة "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَتَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا" (83)، لكن المشهد هناك كان موجها لبني إسرائيل، وتوليهم عما أمرهم الله به، وهي نفس التوجيهات والأحكام التي جاء بها القرآن في سورة الإسراء، وهي مكية. وهذا التكرار، يثبت وحدانية المُرسل، وتطابق الرسالات، ويقدم للمؤمنين، بعد أن وجههم في مكة بما عليهم من تكليف، ألا يأخذوا الأمر بتبسّط وتهاون، فقد جاء مثله من قبل لبني إسرائيل فأعرضوا، فغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم عذابا عظيما.

وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

سبحان الله على التعبير القرآني! خفض الجناح في اللغة تعبير عن التواضع، كما ينزل الطائر متواضعا أي "متنزلا" إلى الأرض من عُلُوٍّ فيخفض جناحه. وهو كناية عن التواضع. لكن الجناح هنا ليس هو مجرد التواضع، بل هو جناح الذلّ، الذي هو أشد خفضاً لمقام النفس من مجرد التواضع. ولأنه ذُلٌّ لعزيز مستحق، أعطى قبلما يأخذ، بل بلا انتظار لأن يأخذ، فهو ذلّ صادر عن الرحمة، ووارد بالرحمة، فيتجسدّ هذا النوع الفريد من الذلّ الحبيب، في تلك الرحمة على الوالدين في ساعة حاجتهما وعسرهما.

ولأنك، مهما أوتيت من قوة ومال وإمكانات، فهناك ما لا تقدر على جلبه، ولا على دفعه، فيأتي هنا دور الدعاء، بالرحمة، التي هي سبب ما أدّوه اليك أولاً، وما أمرك ربك به من خفض جناح الذل من الرحمة بهما، فتدعوه، أن يُأتيهما من رحمته ما لا تقدر عليه أنت ولا غيرك في دنياك هذه، تدعو "ارحمهما ربي ردّا لجميل إحسانهما وحسن صنعهما وسعة رحمتهما بي". اللهم ارحم والدي وكل موتى المسلمين.

رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾

ثم يأتي خبر اليقين، وهو أن الله يعلم ما في النفوس، بل هو أعلم منك بما في نفسك، لذلك لم يقل "ربكم يعلم" بل قال سبحانه "ربكم أعلم"، وهي صيغة "أفعل" المقررة لمزيد من معنى الحروف التي تكَوّن الفعل الحاضر في "يعلم". وقد عادت الصيغة هنا لصيغة الجمع[7]، إذ خرجت عن الصيغة الفردية الخصوصية، التي عُبر بها عن تلك العلاقة الأبوية بين المرء ووالديه، التي لها زخم الشخصنة والتأثير المُفرد، فلا تضيع في زحمة الجمع.

فأنتم، إن كنتم صالحين، تعرفون ما لكم وما عليكم، بالنسبة لما تقدم، من عبادة الله وحده أولاً، وخفض الجناح للوالدين رحمة بهما، ثم بكل ما يترتب على الوفاء بالعهد لله وللوالدين خاصة، فإن الله سبحانه غفور لما سبق، عفوٌ عما لحق، إن كانت الأوبة صادقة، والتوبة نصوحة.

وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ

وذكر القرابة وحقها هنا هو من باب "الشئ بالشئ يُذكر"، كما قال أغلب المفسرين. فبعد أن تمت الوصية بما للوالدين من حق، جاء ذكر ذوي القربي، ثم اليتامى، ثم المساكين. وحقّ هؤلاء هو ما يواسيهم ويسدّ خلتهم، دون الوصية. وهنا تأتي ملاحظة أن ذوي القربي اليتامى مقدمون على ذوى القربي، وذوى القربي اليتامين المساكين، أولى من ذوي القربى اليتامى، واليتامى المساكين أولى من غيرهم من اليتامى. وهذا مقتضى الترتيب في الآية، وهو معقول مفهوم، فإن من تحققت فيه الأوصاف الثلاثة، أولى ممن تحقق فيه وصفان.

وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾

وهذه الآية ليست معطوفة على الآية السابقة لها، في حق الأصناف الثلاثة المذكورين، فكيف يكون مبذراً من يُعطي كل ذي حق حقه، وإن يُذهب في هذا كلّ ماله. فالآية هنا معطوفة على آية "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه"، فهي مستأنفة.

والتبذير هو صرف المال في غير موضعه، أو بأكثر من اللازم في قدره، وكلاهما تبذير. والملاحظ هنا في الآية أنها جاءت بصيغة تفعيلا المصدرية، فقال تعالى "ولا تبذر تبذيرا". وهذا من عظمة من هذا الكلام كلامه. فإن تجنب التبذير بزيادة قليلة هنا وهناك أمرٌ متعذرٌ على الناس، في كلّ حال وعلى استمرار الحياة. فتغاضى الله سبحانه عن قليل التبذير العفوي، من حيث أن التبذير أمرٌ نسبيّ غير منضبطٍ أصلاً، وهو يشبه ما جاء في مسائل الفقه من حيث الإغضاء عن قليل الغرر لعدم انضباطه أولا، وللمشقة الزائدة على المكلفين في تحقيقه، كما في كمية الماء المستخدم في الحمامات القديمة.

[7] وقد ذكر ابن عاشور في التحرير والتوير سببا غير ذلك فقال " والعدول عن الخطاب بالجمع في قوله : "ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين... الآية إلى الخطاب بالإفراد بقوله : "وآت ذا القربى" تفنن لتجنب كراهة إعادة الصيغة الواحدة عدة مرات. ولم أرتح لهذا التفسير من حيث خلوه من الحكمة، ولجوءه إلى التفنن اللغوىّ، وهو أقل درجة بل درجات مما ذكرنا.

والمرء يعرف من نفسه التبذير، إن كان مبذرا. فإنفاق ما لا تملك ثمنه على ما لا تحتاجه، هو أسوأ أنواع التبذير في صوره الحديثة باستعمال البطاقات الإئتمانية Credit Cards.

والله سبحانه قد فضّل بعض الناس على بعض في الرزق، لكن الفروق بين الغنيّ والفقير لا يجب أن تظهر في التبذير،، بل يجب أن يحتفظ الناس جميعا بوسط معتدلٍ وإن كان هناك فروق في المعيشة بطبيعة الحال ولا شك. لكن لا يصح أن يصل الأمر إلى الضدين، الترف الفاحش والفقر المدقع. وتلك الفئة التي تعيش في القصور اليوم لم تكن معروفة أيام الصحابة، رغم الغنى الواسع لبعضهم كعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما. هذه طبقة نشأت في المجتمع الإسلامي في ظل جشع الولاة وتوحشهم، وانعدام التقوى، والمال المتدفق من تحت الإرض. وظهرت وتضخمت في أوروبا منذ أيام الكنيسة وسيطرتها وحكم اللوردات، ثك في ظل الرأسمالية والشيوعية على حد سواء.

وقد بلغ من كراهة التبذير أن قُرن المبذر بالشيطان، فهم إخوان في مجانبة الحق، ووضع الأمور في غير نصابها. فكما يضع الشيطان الباطل محل الحق، يضع المُبذر ماله في محل لا يُراد به. ثم يُذكّر سبحانه بأن الشيطان كفور بالله، فكذلك قياس المبذر أنه كفور بنعمة الله.

وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾

ثم يعود الكلمُ القرآنيّ إلى سياق التعامل مع ذوى القربي واليتامى والمساكين، فعطاؤهم بالحق نعمة وفضل، لكن إن تعذر ذلك، حقيقة لا إدعاء، وانتظاراً لما قد يأت به الله من رحمة، لك ولهم، إذ لا يُكلف الله نفسا إلا وسعها، فلا تصدنّهم صداً عنيفا أو مهيناً، بل اصرفهم عنك بالقول الكريم الميسور، الذى لا يأت بمهانة أو ازدراء. وهذا من قمة الهدي الخُلقي القرآني، من حيث مراعاة شعور الغير، والحساسية في التعامل معهم خاصة وهم في وقت حاجة، وهو أشد الأوقات ضعفاً لبني آدم.

وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾

وينتقل القرآن بين القضايا المتعددة بدءاً وعوداً، برشاقة وفصاحة لا نظير لها، فيدفع الملل، ويحفز الفكر، ويرسخ المعنى. يعود السياق مرة أخرى إلى موضع التبذير، فيصحح النظر ويعيّن الوسط، ويُقوم الفكر، في مسألة الإنفاق.

انظر إلى ذلك المشهد الذي ترسمه الكلمات! رجل، قد غُلّت يديه بالقيود، إلى عنقه، فهو عاجز عن الأداء، كالعبد المُكبّل بالحديد. تلك هي حقيقة البخل والبخيل. عبودية وعبد، لكن للمال من دون الله.

لكن في نفس الوقت، لا يصح التبذير البغيض الذي حذر منه سبحانه قبلا. وقد صوّره هنا بصورة حسّية، كما فعل في التقتير، صورة من يده مبسوطة بكلّ ما لديه، كل الوقت، لا يبقى شيئا احتسابا للقادم المجهول، فإن من يفعل ذلك بقي ملوما، من نفسه وممن يعول، ومحسورا على ما آل اليه وضعه من حاجة تضطره إلى أن يكون صاحب اليد السفلي بدلا من العليا. وقد ذُكر نفس المعنى في موضع آخر من القرآن، وتغيّر المشهد، في سورة الفرقان "وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا" 67، حيث جاء ذلك

التوجيه هناك في معرض المزج بين التوجيهات الخُلُقية، والتوجيهات العبادية، فغلب على الموضع هناك في الفرقان التوجيه العباديّ، وغلب على الموضع هنا في الإسراء، التوجيه الإخلاقيّ.

وهذان الموضعان، يضعان أساساً قوياً نميّز به بين صاحب العبادة، وصاحب الخلق. فلا يلزم هذا من ذاك ضرورة. لكن لو لم يمزج الله سبحانه العبادة بالخلق، لظن البعض أن الُخلق يكفي، كما نسمع كثيرا من جهال قومنا.

فإن قيل، لكننا رأينا رسول الله ﷺ وأزواجه المُطهّرين وكثير من الصحابة المُتّبعين، يفعلون ذلك، فلا يبقون في بيوتهم شيئا لغد، وهم في هذا ممدوحون؟ قلنا إن التكليف غير التشريف. والله سبحانه لا يُكلّف نفساً إلا وسعها. والتكاليف القرآنية لا تأتي للندرة من الناس، بل للغالب الأعم، ويبقى السابقون السابقون محل تطلّع لغيرهم، لا تكليفا عاماً يورث مشقة مُعجزة عن الفعل.

إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾

وهذا التبذير والتقتير، لا لزوم لهما في الحقيقة القدرية، فالله سبحانه مالك الرزق ومعطيه، لا أحد سواه، فمن بّذّر فقد ضيّع حقا كان من المفترض أن يذهب لصاحب الحاجة، ومن قَتَّر فقد حجب من ماله حقوقا عن أصحابها. وليس كلاهما بمن رزق المال الذي بذروه أو قتّروا به. كما أنّ فعلهم لن يكون سببا في إهلاك غيرهم، إلا من أراد الله، فهو القابض الباسط، للرزق وللحياة، وهو الخبير بحالهم خبرة بصير بهم لا عن خبر عنهم.

وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾

ثم، والشئ بالشئ يُذكر، يعرض الله واحدة من أبشع صور الكفر بالآية السالفة "إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ" وهو أن يخشى المرء أن يفقد مالاً، منّ به الله عليه المقام الأول، إن جاء مولود، يأكل من ماله! ألا ما أبشع هذه النفس الجبانة المحقّرة. إن هذا المولود هو في حدّ ذاته رزقٌ كريم، وحياة متجددة، ونعمة سابغة، يرفضها، بل يقتلها، بإجهاض أو غيره، خشية الإملاق.

وقد جاء القرآن بلفظة "تقتلوا" تفظيعا للجرم، إذ هو، من وجه ما: قلت للمولود، بمنع فرصة الحياة عنه. لكن هل يعني هذا أنّ كلَّ إجهاض محرّم؟ والجواب لا. فصفة القتل الذميمة، جاءت في معرض القيد بخشية الإملاق. لكن إن وُجد سبب، كالخشية على حياة المرأة أو ما شابه ذلك من أوضاع اجتماعية تقيّم كلّ بنفسها، فإن الله قد يسّر أمر هذا الدين. لكن يبقى أصل الإجهاض مكروهاً، كالعزل. ويمكن أن يكون حراماً، كما لو دبّت فيه الروح، أو مباحا أو واجباً حسب المناط المُعتبر.

وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗۖ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿٣٢﴾

ثم يستكمل القرآن مسيرة النصح في توجيه مصدر المولود، وضرورة الحفاظ على نسبه، بتجنب فاحشة هي من الكبائر المعدودة في القرآن، وهي كبيرة الزنا.

والزنا هو وطئ إمرأة لا تحل للرجل، لا بزواج ولا بملك يمين. وهذه الفعلة هي من أكثر أسباب خراب المجتمعات وفسادها وفشو الفسق فيها. قد جعلها الله علة في هذا الخراب، وسبباً فيه.

فالزنا يعنى اختلاط الأنساب، ويعني الخيانة للزوج أو الزوجة أو وليّ الأمر، ويعني التلذذ بالحرام والتمتع به من غير بابه، وهو مهانة للمرأة، وكثير غير ذلك من الموبقات الاجتماعية.

ثم، من تسوّل له نفسه مثل تلك الفعلة الفحشاء، خاصة بين المحصنين من الرجال والنساء؟ رجل له زوجة تسكن بيته، وتحلّ له متى شاء، فإن أبت أو عجزت، فله ثلاث غيرها في الحلال. ما الذي يدفعه لمثل هذا العمل المقيت؟ وامرأة لها بعلٌ يؤويها ويعطيها حقها، فإن عجز أو أبى، فلها الطلاق أو الخلع. ومن ثم فجزاء المحصنين والمحصنات هو القتل، لا أقل. فالإسلام يراعي المصلحة الاجتماعية فوق المصلحة الفردية، ويجعل القصاص على قدر المفسدة في ذاتها، وأثرها كذلك. لذلك قال تعالى "وَسَآءَ سَبِيلًا" من حيث أن من سار في سبيله ساء قَدَرُه وانحط قدْرُه

ولخطورة هذا الفعل، فقد نبّه الله على حتى الاقتراب منه، وفعل ما قد يؤدى اليه، سداً لذريعته، مثل الاختلاط، والقبلة، واللمسة، والحديث غير المبرر، والتبسط مع غير المحارم. وكم من هذه الذرائع أدى إلى الوقوع في الزنا نفسه، إلا من عصم الله.

وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾"الإسراء

وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

والنفس هنا عامة، في كلّ نفس، أيّا كان دينها، إلا بالحق. فالاستثناء هنا جاء ليرجه الفقيه بالتخصيص على ذلك العموم، في كافة أحواله. فالمسلم لا يُقتل، إلا في ثلاث حالات، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال، قال رسول اللهﷺ " عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يحل دم امرئٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاثٍ: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق

للجماعة" البخاري ومسلم. والثيب هنا الرجل والمرأة. والنفس بالنفس أي القاتل عمداً، والتارك لدينه هو المرتد عن الإسلام، وتركه للجماعة ظاهر من ظواهر الردة، وليس شرطا فيها. والحكمة من هذا هو أن التارك للحق بعد معرفته يقيناً، وإظهاره لمعاداته ومخالفته، دالٌ على فسادٍ متمكنٍ من الفطرة، في أسوأ صورة من صور الفساد. ومن كان هذا حاله، فلا يؤمن له، ولا يستحق أن يُترك فيعين آخرين على نفس الفعل، ويكون موضعا لتسلل الشيطان في نفوس الناس. والحومات الوضعية تفرض عقوبة الإعدام على مرتكب الخيانة العظمى، فما بالك بخيانة الله ورسوله ﷺ! أمّا عن آية "لا إكراه في الدين" فهي صحيحة متحققة، لكن بشرط أن يكون "قد تبين الرشد من الغي". فإن ظهر المسلمون على محل ما، وأسقطوا حكم الطاغوت، الذي يمنع الناس من رؤية الحق، بإعلامه ومكره ليلا ونهاراً، ساعتها، من أراد أن يُسلم، فقد اهتدى، ومن أراد أن يبقى على النصرانية أو اليهودية، فلا يُكره على غير ذلك، إذ الإيمان مرتبط بعمل القلب والجوارح. فإن تخلف عمل القلب، فلا إيمان. وما الفائدة في الإكراه إذن؟ أمّا غير ذلك من غير أهل الكتاب، فالإسلام أو السيف.

وأما عن أهل الكتاب، فيُقتل المُحارب، لا المعاهد ولا الذميّ، فيحرم قتلهما، مع الاختلاف في عقوبة قاتلهما.

والعدل هنا، لمن قُتل مظلوماً، أي لم يكن من تلك الأصناف الثلاثة، فإن لأولياء الدم السلطان، أي الحق، في أن يلتزم الحاكم بقاعدة النفس بالنفس، بلا عدوان. فإن العدل يتحقق بقتل القاتل، بلا زيادة، فلا تمثيل ولا اعتداء على أهل أو أموال، فقد قال تعالى "ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم"، فالمثلية هي ميزان القسط.

وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ

ثم يعود السياق مرة أخرى إلا حفظ أموال الناس وحقوقهم، فكما قرر حفظ حق ذوي الحق، فهو هنا يحذر من بيده التصرف في مال اليتيم، بل ومن الاقتراب منه، ليكون أكثر توخيا للحذر، إلا ما كان مما يلزم لإقامة الأود والقيام على مصلحة اليتيم، بلا عدوان ولا تجاوز. وتنتهي الوصاية ببلوغ اليتيم رشده، وأن تظهر منه القدرة على التصرف بوعي ورَشَد.

وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾

وهذه الآية تستحق التأمل من كل مسلمٍ، ليقف على ما فيها من ذخائر وحكم سامية.

فقوله تعالى " وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ " فيه من كلّ مكارم الأخلاق وحسن السلوك، ما يجعل صاحبه كريما في الدنيا، عزيزا موصولا في الآخرة. أن يفي الإنسان بعهده، هو أن يفي بالتزاماته نحو أهل بيته، ونحو جيرانه، ونحو دينه والمسلمين أجمعين. أن يفي بعده هو أن يحفظ ميعاده، ويسد دَيْنه، ويحترم كلمته، ويكون عهده هو ما نطق به، لا ما أخذ عليه كتابة، فالكتابة لحفظ الحقوق في الدنيا، لكن "الوفاء" بالعهد هو كلمة الرجل يكون عندها مهما كان.

ثم انظر إلى كلمة "أوفوا" فالوفاء خصلة من خصال الكرام أصحاب الضمائر الحية، لا أصحاب الخيانة والغدر. فمن لم يوف بعهده، فقد خان وغدر. وقد قال تعالى **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ"** المائدة 1. **والعهود أعم من العقود. فالعهد في كل التزام يلتزم به المسلم، والعقد هو في التزامه في المسائل المالية أساساً. وقد يُفسر العقد بأنه عهد، لكن لا على سبيل المطابقة، بل التوسع البلاغي، كما ذكر ابن القيم في زاد المعاد، أن أعلى العقود هو العقد بين المسلم وبين الله سبحانه أن يلتزم التوحيد وينصر الدين.**

والتزام العهد والوعد ليس أمراً متروكا لمشيئة العبد، بل هو مسؤول عنه، إما في الدنيا إن ترتب عليه حقوق، وفي الآخرة إن كان إخلال بشرف أو مروءة. والحظ أن الله قد جعل العهد هو المسؤول، مع أنّ صاحب العهد هو من سيسأل عنه، وهو من قبيل المحسنات البديعية والتصرف في الكلام، أي أن المُخلّ بالعهد سيسأل عنه.

وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلٗا ﴿٣٥﴾

الوفاء بالكيل والوزن بالقسطاس .. أمران قد يراهما المتسرع أمراً واحدا، لكنها الدقة التعبيرية المرهفة إلى أقصى الحدود. فقد يفى المرء بالكيل، بأن يكيل خمس صاعات، لكن ما الفائدة إن كان الكيل ذاته ليس منضبطاً بالمقياس الصحيح، فيعود الأمر إلى عدم الوفاء!

والكيل والوزن لا يجريان في مسائل البيع والشراء لا غير، بل هما، مرة أخرى من الإستعارة البديعية، التي تشمل كل حكم بحق لأحدٍ على الآخر أولاً، ثم باستعمال الحكم الشرعيّ الصحيح في إصدار ذلك الحكم. فالقسطاس المستقيم ليس إلا فيما حكم به الشرع، في كلّ باب من الأبواب. في الميراث والإجارة ومنع الربا والتحايل عليه كالعينة، والغرر والجهالة، وتسليط قوانين البشر على رقاب العباد، ليسيروا رغم أنوفهم على غير القسطاس المستقيم .. ذلك من خسران الميزان **"وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ"** الرحمن 9.

فاستخدام الشارع هنا لتعبيريّ الوزن والكيل، وإن جاء خاصاً بألفاظ البيع، إلا إنه عامٌ في كلّ وزن وقسط، على مستوى الشريعة ككلّ. وقد يختلف هنا الأصوليون في مسألة مَنْ مِنَ المعنيين هو الاستعمال الأصليّ ومن منهما الاستعمال الثانويّ. وهنا تطول المناقشة وتخرج عن إطار ما أردنا.

وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾

وهو توجيه عام رائع يحمى النفس والجماعة والأمة من متسلقى الرأي ورويبضات الزمن. فحماية النفس بأن يكون كلام المرء على علم حين يعلم أنّ حديثه محسوب عليه، سمعا وبصرا وفؤاداً، فلا يتحدث بما رأى ولا ما سمع، ولا ما خطر على فؤاده مما يتعلق بالغير حتى يتيقن صحة ما يقول. وتعبير "مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ" يعني التقصي كما يعني الإخبار. فالاقتفاء، أو القفو في العربية هو تتبع الأثر. وما من اقتفاء لأثر إلا لغرض، وحسب صحة الغرض، ودقة الاقتفاء والاحاطة بالعلم، تكون المحاسبة على ما سمع وبصر واستشعر.

وكثير من الناس يقع في هذا الأمر، من حيث يسميه استشراف للأحداث، دون أن يتناولها من كل جانب، سمعا وبصرا وفكرا. فتجده يخلط ويتأول ويقلب المفاهيم رأسا على عقب .. ذلك هو المسؤول عن اقتفاء ما ليس له به علم، خاصة حين يكون الأمر تابعا لغيب منتظر، هو مما لا يمكن لبشر العلم به.

وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾

ثم يعود المشهد لخلق أخر، له صلة بالمتحدث بغير علم يقين، وهو الكبر والخيلاء. ويشهد الله ما رأيت أحدا في نصف القرن الذي قضيته عاملا في الحركة الإسلامية، ممن يقفُ ما ليس له به علم، إلا اقترن بكبرٍ وخيلاء زائف. فهما متلازمان لا يفترقان.

والمشي في الأرض مرحا، تعبير عن الخيلاء والفرح بالنفس، وبما حازت من قبول أوعمل مشكور، ناسية أو متناسية أنه لولا عون الله تعالى، وتهيئة الأسباب من الناس، لكان هؤلاء نسياً منسياً. واسمع لقول الله تعالى لقارون صاحب الغنى الفاحش **"لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76)** وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ77) " القصص. خُلق الأغنياء المترفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يُصلحون. وعدم الفرح هنا، ليس مقابل الحزن، بل مقابل التواضع لله وللناس. وقد أتبع الله نصحه لقارون ومن مثله، بالنهج القويم، وهو الموازنة المتعادلة، بين الدنيا وحلالها من مُتع، وبين الآخرة والسعي لها مع الإيمان.

وقد عبّر الله سبحانه بقوله "ولا تنس" دلالة على أن أمر الدنيا أصغر في القلب والاعتبار، حتى احتاج أن يُذكِّر به الله العبد الصالح.

والمُعجب بنفسه، الفرح بما أوتي لا يرى صغر ما بين يديه إلى جانب خلق الله،لا في الكون السحيق، بل على الأرض التي يعتقد أنه سيدها! فإنه، لن يخرق تلك الأرض، بما أوتي من قوة .. إلا ثقوب ينظر منها، لا تسمى خرقا، ولن تكون. كما أنه لن يبلغ الجبال طولا يتيه به على الخلق من حوله. فهو خلق من الخلق يمرض كما يمرضون، ويضعف كما يضعفون، ويشيب كما يشيبون، ثم يموت كما يموتون، بلا أدنى فرق! فيم التيه والفرح والعجب والخيلاء إذن؟ ما أساسها ودعائمها؟ إلا وهم العقول ووساوس الشياطين.

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾

والظاهر هنا هو أن " سَيِّئُهُ" بمعنى سيئاته، فكل ما نهى عنه في تلك الباقة الفريدة من التوجيهات الخلقية هو من السيئات التي يكرهها الله سبحانه، وهي في مقام التحريم. وقيل أن الوصف هنا يقع على النهيين الأخيرين، وهما عدم القفو بغير علم وعدم المشي في الارض مرحا واختيالا. لكننا نرى أن كلّ نهي تقدم يدخل في ذلك الوصف، فالعموم اولى.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ

وقد سمى الله سبحانه تلك الآيات والتوجيهات بالحكمة، ووالله هي حكمة صرفة لا تأتي إلا من لدن خبير عليم حكيم، يعلم من خلق، ويعلم ما يصلح له ويُصلحه. وهذه الحكم الثمينة هي فضل من الله، أتى به الوحي المنزّل على محمد ﷺ ليتّبعه، ويُعلم به أمته والبشرية كلها بما فيها من الخير العميم.

وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾"الإسراء

ثم يعود الوحي القرآنيّ ليؤكد على الحقيقة العظمى التي تصدر عنها تلك الأوامر والنواهي، والتي بدأ بها تلك التوجيهات النورانية، وهي التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، فعاقبة غير ذلك أن يكون "مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا"، ثم " مَلُومٗا مَّدۡحُورًا"، واللوم هنا يأتي من نفس المشرك، يلوم نفسه "يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا" الفرقان 27. والدحر هو الهزيمة المنكرة، فقد انهزم المشرك في أعظم معركة، على سهولة النصر فيها، بالاعتصام بالله ورسوله ﷺ .

فما أعظمها من حِكم بدأت بالدعوة إلى التوحيد، وانتهت بالتأكيد على التوحيد.

(2)

باقة سورة الحجرات

في هذا المشهد القرآني التعليمي، في الباقة الجديدة من التوجيهات الأخلاقية، يطالعنا مشهد حيّ من عصر النبوة، ورد في سورة الحجرات، وهومشهد يبيّن ناحية أصيلة من نواحي التوحيد، ويربطها بخُلُق من صقلتهم التربية القرآنية السديدة، ويبينها في أرقي صورة لها، التعامل مع سيد الخلق، رسول الله ﷺ. ثم يعرّج القرآن على خطورة الاستماع إلى الاشاعات. ثم يتحدث عن الصلح بين المؤمنين، وتقييم العلاقة الوطيدة بينهم بحسن الحديث وطيبه، وافتراض الأفضل في المؤمنين.

باقة شاملة كاملة تهدى للتي هي أقوم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2)إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4)وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)

فلنبدأ بإذن الله تعالى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1)

وأمر التقديم بين يديّ الله ورسوله ﷺ أمر عظيم، يصل إلى حدّ فاصلٍ بين الإسلام والكفر. فإن سبب نزول الآية كما ورد في الطبري "حدثنا ابن عبد الأعلى, قال: ثنا ابن ثور, عن معمر, عن قتادة, قال: إن أُناسا كانوا يقولون: لو أنـزل في كذا، لو أنـزل في كذا، وقال الحسن: هم قوم نحروا قبل أن يصلي النبيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم, فأمرهم النبيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّم أن يعيدوا الذبح." تفسير الطبري. وجاء في مثل هذا المعني أقوال

تتفق في مضمونها، أنهم مأمورون " لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة" كما ورد عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس رضي الله عنه.

فالتقديم بين يديّ الله ورسوله ﷺ إنما يعنى ألا يتبع المسلم هواه، ويسبق بقول أو رأي حتى يعلم قول الشرع فيه، من كتاب أو سنة صحيحة.

وكثيرة هي صور التقديم بين يديّ الله ورسوله ﷺ.

فصاحب التأويل الذي يُقدم العقل على النقل، ويدّعى أن الإسلام يوافق العقل، وهو ما جاء به عقله هو، يُقدّم بين يديّ الله وؤسوله ﷺ.

وصاحب التفسير الباطني الصوفي الشركي الذي يدّعي أن للقرآن ظاهرٌ وباطن، وأن رسول الله ﷺ قد أتى للعامة بالظاهر، وترك للخاصة الباطن، أو إنه يمكن أن يتخذ الناس وسطاء لله ممن زعمهم أولياء له، أو أن يتوجه لهم بالدعاء مباشرة، هو يقدّم بين يديّ الله ورسوله ﷺ.

وصاحب البدعة الشركية الرافضية الذي يدّعي بدعة الإئمة السبعة أو الإثني عشرة إماماً، والمختفي آخرهم، وأنهم يعلمون الغيب، ويعلمون متى يموتون، بل ولا يموتون إلا برضاهم، ثم ذهب يسب من أثنى الله عليهم بالرضا عنهم وصحة مبايعتهم لرسوله ﷺ، أقذع السباب وأفحشه، يقدّم بين يديّ الله ورسوله ﷺ.

وعالم السلطان أو عالم الشيطان، الذي يتلاعب بآيات الله فيفسرها حسب ما يلزم لتحسين صورة ولي أمره، أو تبرير جرائمه وفواحشه، يّقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ.

والمشرّع أو القاضي الذي يشرع أو يقضي بغير ما أنزل الله، ويتخذ من قوانين البشر مذهبا متبعا مفروضا في قومه، يُقدّم بين يديّ الله ورسوله ﷺ.

وهي كلها صور كفرية من صور التقديم بين يدي الله ورسوله ﷺ.

ثم من فعل المعصية، وترك السنة، فهو يقدّم بين يديّ الله ورسوله ﷺ بطبيعة الحال، إذ قدّم شهوته أو شبهته على ما أمره به الله ورسوله ﷺ. لكن هذا اللون لا يُخرج من الملة، بل صاحبه فاسق شهوة أو مبتدع شبهة.

فليكن المسلم على حذرٍ مما يقول أو يفعل، وأن يعرضه على الشرع قبل أن يقول أو يفعل، حتى لا يقع تحت طائل تلك الآيات شديدة الوقع على الخارجين عن الشرع. بل على المسلم أن يتقى الله ويخاف من ترهيبه، إذ إن الله يسمع ما يقول "سميع"، عالم بما يفعل "عليم"، لا تخفى عليه ذرة في السماء ولا في الأرض، سبحانه.

ثم ينتقل القرآن إلى مقام رسول الله ﷺ وحده، بعد النهي عن التقديم يدي الله ورسوله ﷺ. فقد نهى ربنا عن رفع أصوات الناس من حول رسول الله ﷺ على صوته الكريم أو أن يحدثونه بصوت عال، كأنهم يتحدث بعضهم إلى بعض. وفي هذا غاية الإحترام ورفعة المقام، التي تليق بهيبة سيد المرسلين وإمام المبعوثين ورحمة العالمين ﷺ. وهذا العمل، وإن بدا صغيرا، إلا أنه يحبط العمل كله .. يفعل المسلم الخير الكثير، ثم يسئ الأدب مع رسول الله ﷺ فإذا بعمله يحبط وثوابه يذهب، وهو لا يشعر!

وفي هذا التحذير الأخير ما فيه من معان كثيرة كبيرة، منها عدم استصغار الذنب وإن بدا لك صغيراً،

ومنها أن قدر رسول الله ﷺ ليس كقدر أحد من البشر، أيّا كان، لا الحسين رضي الله عنه ولا غيره كما تدّعي الروافض الفجرة،

ومنها أن العمل قد يحبط دون أن يشعر المسلم بذلك، فيظل يعتقد أنه على عهده القديم وطريقه القويم، والمسكين لا يشعر أنه فقد رصيده عند الله بالفعل **"الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) " الكهف.**

ومنها أنه إن كان مجرد رفع الصوت فوق صوته ﷺ يُحبط العمل، فما بالك بفعل التقديم بين يديه، وتقديم النفس عليه ﷺ.

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

وخفض الصوت عند رسول الله ﷺ دلالة على القدر الأعلى الذي يجب أن يُعامل به ﷺ في حياته وبعد مماته. وخفض الصوت، أقل درجة من رفع العين والرأي عما قال وقرر. وخفض الصوت معه ﷺ هو امتحان لما في قلب المؤمن من محبة وإعزاز وإكرام وتقدير له ﷺ، والاستماع إلى قوله وعدم تقديم الرأي والهوى عما ثبت عنه ﷺ هو امتحان أكبر، من الله تعالى، بل هو الامتحان الأعظم، الذي يُفرّق، في أعلى درجاته، بين الإسلام والكفر، حين يكون تقديم الرأي رداً لما قال.

وهؤلاء الناجحون المفلحون في ذاك الامتحان، هم أصحاب التقوى. وأصحاب التقوى هم من يستحق مغفرة الله سبحانه وفضله، ويُكتب لهم الأجر العظيم والثواب الجزيل، جنات تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها، فضل من ربهم ونعمة.

إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

وقد كان سبب نزول هذه الآية، كما في الطبري، هو أن جماعة من الأعراب ممن لم يُهذّبهم الدين بعد، أتوا إلى بيت رسول الله ﷺ فنادوه من خارج بيته بصوت عال "يا محمد اخرج علينا". فآذى ذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآية، لا بمجرد توبيخ لهم، بل وصفهم بما يستحقون، من إنهم لا يعقلون.

وهؤلاء بالفعل، لا عقل لهم، بمعنى الفطرة السليمة التي تأبى أن تُخرج المرء عن التصرف السديد، لأول وهلة. فلا حاجة هنا لتشريع، بل هي الفطرة والادراك العقلي البسيط، الذي وصف الله من فعل تلك الفعلة بفقدانه.

وفي هذا لطيفة أخرى، وهي جواز تسمية من يأتي بأقوال أو أفعال تخالف السنة أو الفطرة، بأنهم لا يعقلون، أو مخابيل أو غير ذلك، فإن الله سبحانه قد وصف بعض القوم بهذا، دون سبق تنبيه لهم، لأن الفعل في ذاته يحمل دلالة على صفة فاعله. ولكنك تجد أصحاب الورع البارد ينعون عليك أن تتحدث بمثل هذا القول، على من يحرّف في سنة، أو، وهو الأدهى، يفتى من غير علم على الإطلاق.

واللطيفة الأخرى تأتي في تكملة الآية، وهي أن مصلحتهم كانت في اتباع الفطرة السوية والخُلُق الكريم، فلو صبروا حتى يخرج اليهم رسول الله ﷺ لكان في ذلك خير لهم وأصلح. وبالمثل، لو اتبع الناس سنته ﷺ لتحققت مصالحهم ونالوا خيريّ الدنيا والآخرة. لكن الانتكاس في الفطر، والتفلت من السنن، لا تأت بخير أبدا.

واللطيفة الثالثة، هي أن الله سبحانه، يعلم أنّ هؤلاء الأعراب جهلة لا يعقلون، وإن كانوا مسلمين. فكان لهم العذر، فشملهم بالرحمة والعفو لجهلهم بعد التوبيخ.

فهذه اللطائف فقه حسنٌ في آيات الله، يجب على المسلم تدبرها واستنشاق روائح عطرها في روحه وعمله.

وينتقل القرآن لوجهة أخرى تمسّ الخُلق الإسلاميّ الفرديّ والجماعيّ أدق المِساس وأقربه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7)فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)

فمعا إلى عبق الآيات ..

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (6)

ونزول الآية كان بخصوص صدقات بني المصطلق، وكان رسول الله ﷺ قد بعث فيهم وفداً فيه الوليد بن عقبة ابن أبي معيط، فلما كان الوفد في منتصف الطريق، خرج القوم ليلاقوا وفد رسول الله ﷺ مرحبين. لكن الوليد ظن بهم سوءاً، فرجع إلى رسول الله ﷺ زاعماً ردّتهم، وأنهم إنما خرجوا لقتلهم. وحين أعلم الله سبحانه رسول الله ﷺ بالحق، نزلت تلك الآيات التي تحذّر المؤمنين من السماع لكل من أشاع قولاً، دون التثبت من صدق الراوي وعدله.

وقد سنّ ربنا عز وجلّ في هذه الآية أحسن الطريق للتعامل مع ما يأتي به فاسق، أو مجهول، خاصة إن كان فيه ما يجلب الأذى على الغير. فالتبيّن هنا ضرورة شرعية، من حيث أن العمل بمجرد السماع، فيه ظلمٌ بيّن لمن أصابه ضرر بسبب ذلك التسرع بنشر الأقوال غير الثابتة.

وفي زمننا هذا، كم نرى من أقوال خبيثة تنتشر كالنار في الهشيم، يصيب بها شياطين الإنس أقواماً، سواء بالتجنى عليهم، أو بتأويل حديثهم ووضعه في غير موضعه، والنتيجة واحدة، إصابة المشاع عنه بالضرر، والندم بغير طائل ممن فعل تلك الفعلة.

والحظ يا رعاك الله أن الله سبحانه هنا لا يخاطب الفاسق، مثير الشغب والكذب، في قوله تعالى "فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"، فهذا الفاسق غالبا ما تكون العادة تأصلت فيه، لا فرار له من رجزها. لكن الحديث موجّهٌ إلى المُستمِع للفاسق، وهو المؤمن المخلص، غير المتحرى لما يسمع، وهو النادم على ذلك الاستماع والإضرار.

وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

وهذا العلم، باق فينا إلى يوم القيامة. وإن كان أصلاً قد توجه للصحابة الأفاضل لأنّ فيهم رسول الله ﷺ، لكنه فينا ﷺ بسنته وسيرته وتصرفاته، قولا وفعلا وتقريراً.

ولو أن رسول الله ﷺ في حال حياته، استمع لما يقوله بعض من حوله برأيه لنتج من ذلك حروب ودماء واقتتال، لكن رسول ﷺ لم يفعل ذلك، فصرف عنكم العنت وهو الشدة، وأبدلكم بمحبة الإيمان، وجعله نوراً في قلوبكم يهديكم سواء السبيل باتباع رسول الله الحبيب ﷺ، وفي المقابل، جعل الكفر والفسوق والعصيان

مكروها لكم يا معشر المؤمنين. وهي كلها ألوان من الكفر والبهتان والظلم والفسق والفجور ومعصية الله ورسوله ﷺ، بأي صورة كانت. فمن كان على هذه الصفة، فإن الله سبحانه قد وصفهم بالراشدين، أي الذين بلغوا الرشد البشري على أتم وجه .. أولئك هم جيل الصحابة الفريد، ثم من تبعهم في طريقهم، وسار على هديهم، ممن جاء بعدهم.

وهذا الذي حباكم به الله، ليس من عملكم، بل هو محض فضل الله ورحمته بكم وإنعامه عليكم بما عَرَف منكم من حسن سريرة وبلوغ رَشَدْ. ذلك أن الله يعلم ما في قلوبكم من محبة للإيمان، وما اختياره لكم للفضل والنعمة إلا لحكمة منه لا يعلمها إلا هو، فهو العليم الحكيم.

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

ثم يبدل الله المشهد الخلقي من التعامل مع افتراء فاسق، إلى التعامل مع الفتنة بين طائفتين من المسلمين.

والمسلمون بشرٌ، مهما كانوا، ومهما أدركوا من آفاق سامية، فأسباب الاقتتال بين البشر كثيرة متعددة. وللشيطان حيل وطرق لا تُحصى، يستخدمها لجلب العداوة بين الإخوة في الإيمان، وإن كان كلّ منها يرى أنه على الحق، وأن قوله الصواب.

لكن فلنقف لحظات عند هذا الاقتتال، قبل أن نصل إلى ما أراده الله من إصلاح ذات بينهما. فهذا الأمر شائك معقد، على ما يبدو من بساطة وعفوية.

الصلح خير، نعم، هو قول الله تعالى في سورة النساء. والصلح يجرى على يد حَكَمٍ عادل مستقل عن طرفيّ النزاع، فإنه لا يصلح خصمٌ وحكماً، يدرس سبب القتال، ثم يبين لكل فريق وجهة النظر الأخرى، وعلى المتقاتلين أن يخضعوا لهذا التحاكم، وينزلوا على رأي الحَكَم، وبهذا التسليم وحده يتوقف سفك الدماء المحرّمة.

وهذا التسليم، يقتضي أن يكون كلّ فريق لديه القابلية لقبول الحق، والفهم عن الله ورسوله ﷺ، وعدم التكبر، أو اختلاق الأعذار، أو العناد وجحد الحقوق. فإن تيسر هذا، وجدت المختلف قد ائتلف، والمخالف صار موافقا، وانقلبوا بنعمة الله إخوانا.

لكن ما يشوّش على هذا، هو أن يتلاعب الشيطان بعقول مسؤولي طائفة من الطائفتين، فيرفضوا حكم الحَكَم، إما لهوى متبع من مصلحة شخصية، أو تسلط وحب الاستيلاء على مقدرات الغير، أو ماشئت من أسباب. والمفترض أن الحكم قد بيّن من هو على حق ومن هو مخالف له، أو بيّن سبب الخلاف لتعدد الآراء وتشابكها. لكنه، في نهاية الأمر، قدّم ما ينبغي أن يكون.

فإن رفضت طائفة ما بيّن الحَكم، للأسباب التي ذكرنا، ولم يتوقفوا عن قتال الطائفة الأخرى، فعلى كافة المؤمنين أن يقاتلوا تلك الفئة الباغية، التي رفضت النزول على حكم الحَكَّم، الذي هو حُكم مقتبس من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

لكنّ البغي هنا يجب أن يكون معرّفا تعريفاً صحيحاً، بلا جهل ولا هوى. وهذا يقع على عاتق الجماعة المسلمة في كليتها، لا جزئيتيها المتقالتين. فيكون الحَكَمُ من غيرهما، بلا خلاف.

وكم من فئة بغت وتغلبت، وهي على باطل، وذلك لانعدام القوة المسلمة الرادعة، النائبة عن الأمة، والتي خاطبها الله سبحانه "كطرف ثالث" في الآيات "فأصلحوا بينهما"، و "قاتلوا التي تبغي".

هناك إذن **طرف ثالث**، يُحدد كيفية الصلح وشروطه، يُصلح ما أمكن وإلا حارب الطرف الثالث، مع الطائفة المبغيّ عليها، الطائفة الثالثة الباغية.

هذا سبب ما نرى من تفرق وتشرذم واقتتال ورفض للتحاكم والنزول على حكم الطرف الثالث، لغيابه، ولقلة إيمان الطوائف المتقاتلة، لعدم الخضوع لحَكَمٍ من الجماعة الأم، وإن لم يكن له، أو للجماعة الأم القوة على حمل الحق ومحاربة البغاة.

ذلك هو بيت الداء ..

وقد أمر الله سبحانه ذلك الطرف الكليّ الثالث، أن يحارب الباغي، حتى يرجع للقبول بالحق الذي تقرر في التحكيم، أو يُباد إبادة كاملة. فإن وجود مثل تلك الطائفة، خراب للأمة عامة، إن لم تفئ إلى أمر الله سبحانه.

والشاهد هنا، أن الطائفة الباغية تلك، والتي قاتلت الأخرى، بل وقاتلت الطرف الكليّ الممثل للأمة، ليست كافرة، كما يقرر الخوارج لعنة الله عليهم. بل هم كما وصفهم الله سبحانه، بغاة لا أكثر، إلا أن يُصاحب قتالهم بدعة مكفرة، كتكفير المسلمين بغير مكفر، أو ولاءهم في قتالهم هذا لراية كافرة، يحاربون ضد المسلمين، أو غير ذلك مما يصحب القتال من عقائد وتوجهات، تسبغ عليه صفة البغي، فيقع تحت مضمون هذه الآيات البينات، أو ينتقل به إلا مضمون ما ورد في سورة التوبة أو سورة محمد وغيرهما.

والدليل على إسلام تلك الطائفة الباغية، الموصوفة في هذه الآيات بالذات، هو قول الله تعالى "من المؤمنين"، ثم قوله في الآية التالية " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ"، فوصفهم بالإسلام حال قتالهما معا، وهو وصف لم يأت ما يغيّره في حالة قتال الطرف الثالث النائب عن الأمة للطائفة الباغية. فإن استقر القتال وخضع البغاة، فتذكروا أنهم من إخوانكم المؤمنين، وعاملوهم بالقسط معاملة الأخوة، لا معاملة الأعداء.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)

ثم ينتقل القرآن إلى جانب آخر من جوانب الفساد الخُلُقي، يحذر المؤمنين، فيما بينهم، منه أشد التحذير، سواء على المستوى الفردي أو الجماعيّ، أو بين الرجال أو بين النساء، ذلك هو السخرية المقيتة، المبنية على التكبر الزائف، ، والخيلاء المزعومة والكذب وسوء الطوية وخبث النفس وانحطاط الأصل والشعور بالضعف. وهي صفات أسوأ ما يمكن أن يتصف بها خلْقٌ يدعي البشرية.

ذلك أن معيار القياس الخلقيّ والقيمة الوجودية للإنسان، لا يمكن أن يعتبرها من فيه هذه النقائص. فترى القوم يسخرون من قوم على أساس من العنصرية أو اللون أو الجنس أو المال، كما يفعل البيض بالسود، أو أعراب الخليج بالعمال الوافدين .. ولعل هؤلاء الساخرون، أحط درجات من الآخرين، وغالبا ما همْ.

وعسى هنا ليست للتشكيك، بل للتأكيد كما في قوله تعالى في سورة الأعراف **"قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129)" ، فإن الساخر لا يكون على حق إلا في حالات معينة سنتحدث عنها فيما يأتي.**

و"القوم" هنا قد يُقصد بهم الرجال كذلك، من حيث مقابلتهم بالنساء، وتحذيرهن من أن يسخرن من أخواتهن، وهو أمر أوسع انتشاراً بين النساء، لسبب ما!

وكما منع الله السخرية من الآخرين، منع الهمز واللمز، وهو ذكر العيب بطريق مُبطّن، وكأنه غير مقصود، وهو أسوأ وأخبث طريقة من السخرية الظاهرة. ومثل ذلك الرمي بالألقاب المشينة التي عرفت بالسوء والفاحشة، وهي ما وُضعت أصلاً للإهانة والتقليل من الشأن. ومثل تلك الأفعال تنقل الفاعل من رتبة المؤمن إلى رتبة الفاسق، وما أتعس وأبأس من هذا منقلبه.

كل هذا التحذير والوعيد، إنما هو، كما أشرنا، بين المؤمنين. إنما هذا لا ينطبق في حالة تسمية الفاسق بالفاسق، والفاجر بالفاجر، والعاهر بالعاهر والمبتدع بالمبتدع. ليس هذا من ذاك. هذا خلطٌ للأوراق! هذاك اتهام بما لم يثبت، أما ما ثبت فهو إهانة العاصين الفاسقين الفاجرين العاهرين المبتدعين. وهو كذلك تعريف بهم وتنفيرٌ من أفعالهم، وتحذير من اتّباعهم. ومن خَلَط الأوراق وتورع ورعاً بارداً في هذا الأمر، فقد ضلّ وأضلّ.

ثم إن باب التوبة مفتوح لمن يفعل ذلك، كما هو مفتوح لكل عاصٍ رجّاع إلى الله.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)

ثم ينقلنا القرآن لشحنة أخلاقية جديدة، ترتفع بالنفس إلى القيم العليا والتصرفات الفُضلى، التي تضمن صحة المجتمعات، وحماية الأفراد.

وأول تلك الصفات في هذه الباقة، هي اجتناب الظن. والظن يأتي في القرآن بمعنيين، أولهما عدم اليقين، كما هو في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة الجاثية **"إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ(32) "**. والثاني، الظن بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى في سورة الكهف **"وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا (53)"**. فالظن إذن ظنُ حقٍ، وظن باطلٍ.

وظن الباطل هو الظن المذموم، من حيث لا دليل عليه إلا الشبهات أو الشهوات.

ونلاحظ لطيفة هنا، وهي أن الله لم يجعل كلّ الظنّ إثماً. ذلك لأنه، عند غالب الناس، يكون لهذا الظن، بعض أساس قد يَظهر صِدقه، لكن الله منع كثير الظنّ، من حيث أن الباقي المُتحقق مُبْهَمٌ غير معروف، والحكم الظاهر في الشريعة للغالب الأعم.

ثم نهى سبحانه عن نقيصة ذميمة وهي التجسس على الغير، لأيّ سبب كان، خاصة وهذا يقع كثيراً في البيوتات، حيث يظن أحد الزوجين بالآخر شراً، فيتجسس، وتكون العاقبة وخيمة. أو التجسس بين شركاء العمل أو الأصدقاء، فهذا كله مما يُشين ويُهين، مهما ادعى المتجسس. بل إن السنة منعت من التجسس على الناس داخل بيوتهم، ولو عُلِم أن هناك إثم يُرتكب، طالماً لم يكن ظاهراً مستعلنا، وكانت الأبواب مُغلّقة! لهذا الحدّ يحترم الإسلام حرية الفرد ويصونها، في حدودها.

أما عن التجسس على الجماعة، لصالح عدوٍ، فهذا أمره يعود إلى الولاء والبراء، وخصوص التوحيد، والثابت عليه التجسس حدّه القتل، واختلفوا في الردة، حسب حال الجاسوس.

ونقيصة أخرى، لا تقل، بل قد تفوق سوابقها، وهي الغيبة، أي ذكر الإنسان بما يكره، سواء كان فيه ما ذُكر أم لم يكن. وهي معدودة عند كافة العلماء من الكبائر بذاتها، وفي حديث مسلمٍ **عن** أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال أتدرون ما الغيبة قالوا الله ورسوله أعلم قال ذكرك أخاك بما يكره قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته"، فالمرء ساعتها بين غيبة وبهتان!

وقد مثّل رسول الله ﷺ للغيبة بأبشع مثال، وهو أن يأكل المرء من لحم أخيه الميت، لا الحي. وفي هذا غاية التغليظ في الفعلة المنكرة، فأكل لحم حيّ قد يستسيغه مستسيغ، مع بشاعته، لكن أكل لحم البشر الميت، فليس هناك نفس أحطّ ولا أسفل من تلك النفس التي ترضاه. وهذا ما تكرهه كل نفس عفيفة، بل تمقته مقتاً

ثم يُنهي الله سبحانه هذه الباقة الكريمة من سورة الحجرات بالنصيحة الأعظم لكافة المسلمين، أن اتقوا الله. اتقوا الله لأنه مُطّلع على ما في صدوركم وما تتحدث به ألسنتكم سراً وعلانية. اتقوا الله لأنه لا تعذُب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض. اتقوا الله لأن عدله صارم وحسابه قائم وعذابه دائم.

فالتقوى هي جماع أمر الخُلق الحسن. هي ما يمنع المسلم من فعل الأعمال القبيحة ويدفعه لفعل الأعمال الحميدة.

د طارق عبد الحليم

18 يناير 2019 – 12 جماد أول 1440